الأفعال الكلامية في ديوان خطب ابن نباتة
– تحليل من منظور رؤية سيرل–
Verbal Acts in the Office of Ibn Nabata sermons - Analysis from the perspective of Searle-

أ. مهدي مشتة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة الإخوة منتوري (قسنطينة1) قسنطينة/ الجزائر

الملخص:

ترتكز التّداولية كأساس على دراسة اللغة أثناء استعمالها، واستخدامها في سياق التخاطب، وتقوم على مفاهيم عديدة من بينها الأفعال الكلاميّة التي بدأت مسيرتها مع دراسات "أوستين"، وطوّرها من بعده تلميذه "سيرل" بإعطائها صيغتها النّموذجية النّهائيّة؛ لتصبح نواة مركزيّة في الدّرس التّداولي، وعلى أساس ذلك ثم مقاربة هذا المبحث التداولي وفق رؤية سيرل في هذا المقال بدراسة تطبيقية في ديوان خطب ابن نباتة.

الكلمات المفتاحية:

التداولية – أفعال الكلام – سورل – ابن نباتة.

Abstract :

The deliberative is based on the study of language during its use and in the context of communication. It is based on several concepts, including the verbal actions that began with the studies of "Austin" and was developed by his student "Searl" by giving it its final model form, to become a central nucleus in the deliberative lesson. And then approach this subject of

deliberation according to the vision of Searl in this article to study the application in the Office of speeches of Ibn Nabata.

Keywords:
Pragmatics - Verbal Acts - Searle - Ibn Nabata.

مقدمة:

تحتلّ نظريّة أفعال الكلام موقعا متميّزا، وتُشكّل جزء أساسيّا من البنية النظريّة للتّداوليّة إذ هي الرّكن الأوّل من أركان هذا المنهج، والدّعامة الكبرى له، وهي من بين النّظريات التّداوليّة التّي كان لها صدى كبير في مجال الدّراسات اللّسانيّة بالخصوص، ولا يتّضح مفهوم الفعل الكلامي إلّا بالرّجوع إلى الإطار المفاهيمي لهذه النّظريّة، التي ظهرت تجاوزا لـ«مفهوم الوصف المسند في الغالب للّغة، والذي أقصى كثيرا من العبارات المستخدمة، بحجّة عدم خضوعها لمعيار الصّدق، والكذب»[1]، وكما هو معلوم فجلّ الباحثين يتّفقون على أنّ نظريّة الأفعال الكلاميّة مرّت بمرحلتين أساسيتين هما : مرحلة التأسيس عند أوستن (J.L.Austin) ومرحلة النضج والضبط المنهجي عند تلميذه سيرل (J.R.Searl)، وكلاهما من فلاسفة أكسفورد[2]، ومن أجل مقاربة هذا المبحث التداولي تم اختيار ديوان خطب ابن نباتة الفارقي* كأنموذج للتطبيق بالاعتماد في استنطاق خطب الدّيوان على التّقسيم الخماسي الذي تقدّم به الفيلسوف اللغوي "سيرل" (J.R.Searl)؛ لأنّه حاز على اهتمام الباحثين كما أنّه يمثّل النّموذج الأكثر نضجا للنّظريّة بعدما طور فيه "سيرل" خطى أستاذه "أوستين" الذي صرّح بعدم اقتناعه بتقسيمه الأخير لأفعال الكلام ويتأسس هذا البحث على الإشكاليّة التّالية: كيف استطاع ابن نباتة التّعبير عن مقاصده التّخاطبية في خطب ديوانه من خلال التّصنيفات السّورليّة لأفعال الكلام؟.

أولا: أفعال الكلام، وقوتها الإنجازيّة في خطب الدّيوان:

1-1:الإخباريّات: Assertives:

هي أولى التّصنيفات السّورلية، وقد ترجمت أيضا إلى التّمثيليّات والتّأكيديّات وأفعال الإثبات أو التّقريرات «والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلّم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية (proposition) يعبّر بها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصّنف كلّها تحمل الصّدق الكذب، واتّجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم»[3]، واتّخذها الخطيب حلقة وصل بينه وبين مخاطبه للتّعبير عن مقاصده، ومحقّقا بها غرضا إنجازيا، يتمثل في نقل الوقائع بكلّ أمانة، محقّقة شرط الإخلاص المتمثّل في صدقه كمتكلّم، ونقله الأمين للواقعة وحمل المتلقّي على التّصديق، ومن أمثلتها قول الخطيب: «**أيُّها النَّاسُ: إنَّ الدُّنيَا مَتاعٌ، مَقَامكُم فيها اطّلاعٌ، ووَصلُها لكُم انقطاع، وارتفاعُها بكم اتّضَاع تحلّى مذاقةَ ما تُمِرُّ خِتامَه، وتُصبي بالرّضاع من تُسرُّ فِطامُه، وتُظهِر مصافاةَ مَن تُضمِر حِمامُه، وتَختِل بالصِّغارِ من تَظهِرُ إكرامَه، وما نالَ أحدٌ رغَدَ مراعيها، إلّا مِن أَنيابِ أفَاعِيها، ولا ثُوّبَ بالسّرور داعيها إلّا أجَابه بالثُّبورِ نَاعيهَا...**»[4]. يوجّه ابن نباتة خطابه في هذا النّص إلى مخاطبه الذي حدّدت صيغة النّداء (**أيّها النّاس**) مرجعه، وهم أهل زمان الخطيب، وهو في الوقت نفسه فعل انجازي يؤثّر تأثيراً مباشراً، إذ يلزم المخاطب بالامتثال، وفيه يظهر حرص المتكلّم على إقبال المخاطب، وهو ما يدل على أن الخطاب معتنى به؛ لأنّ غايته الإصلاح، وهدفه التّغيير في العالم الخارجي، وبعد هذه الصّيغة النّدائيّة افتتح الخطيب نصّه بتوكيد (**إنّ الدّنيا متاع مقامكم فيها اطلاع، ووصلها لكم انقطاع، وارتفاعها بكم اتّضاع**)، وهو «فعل كلامي يندرج ضمن الإخباريّات والغرض الإنجازي لهذا الفعل هو الإخبار أو التقرير»[5]؛ حيث أقرّ من خلاله حقيقة يعيشها الإنسان الغافل مع الدّنيا الذي يظنّ بأنّ مقامه فيها دائم، ووصلُه لها غير منقطع، ومهما نال فيها من مقام رفيع فلن ينزل منه، ولكن في الحقيقة هو عكس ذلك فالدّنيا لا تؤمن بواتقها، وهو ما بيّنه باقي قول الخطيب الذي تضمّن سلسلة من الأفعال الكلاميّة الإخباريّة (**تحلى مذاقة ما تمرّ ختامه،**

وتصبي بالرّضاع من تسرّ فطامه...) التي تكمن قوّتها الإنجازيّة في الوصف، إذ وصفت أفعال الدّنيا مع الإنسان الذي صاحبها، واهتمّ بشأنها ولكنّه لم ينل مراده منها فمات بغصّته، وإن سرّته في بعض الأحيان فهي، وإن أحسنَت فإحسانُها لا يسلم من الكدر؛ لأنّ من عادتها أن تردّ ما أحسنت به أو تدخل عليه أحوالا أخر تنغّصه وتفسده؛ فيكون الخطيب بهذا النّقل الأمين للدّنيا مع الإنسان قد حقّق شرط الإخلاص؛ لأنّه يقصد وله نيّة الإبلاغ، والتّعبير الصّادق عن الحدث، فهو يصف واقعا نعيشه، ونشهده مع أيّام الدّنيا، ولا يختلف فيه اثنان في حوادثها مع الإنسان، وقد تولّد عن الفعل الإخباري في هذا النّص فعل تأثيريّ، وهو التّرغيب في الزّهد في الدّنيا؛ لأنّ ما تريده النّفوس من جاهها زائل، وأحقر من أن نجعله همّا نعيش لأجله، ونسعى لتحقيقه، ويقول في خطبة له في ذكر الموت: «**مَن استمعَ لخطوبِ الأيّام؛ غَنيَ عَن خَطب الأنامِ، ومَن ارتدَعَ عن زُكُوب الآثام؛ رقِي أَعلَى دَرجَات الكِرامَ، ومَن قَدَحَ بَصيرَته بزِنادِ الاعتبار؛ أنَارَت له ظُلَم العَواقِب بمصابيحِ الاستبصَار**»[6]. تظهر الأفعال الكلاميّة لهذا النّص من الإخباريّات؛ لنقلها واقعة بصورة أمينة وصادقة والمخاطب على علم ودراية مسبقة بهذه الأمور؛ لأنّه شهدها وعاينها؛ بل وعاشها، ويبدو من ظاهر فعل القول أنّه لا يوجد ما يدلّ على مخاطب بعينه، وإذًا لا مناص من التّعويل على السّياق الخارجي؛ لأنّه الوحيد الذي يحيلنا على المخاطب الذي هو هنا أهل زمان الخطيب دون سواهم، والقوّة الإنجازيّة لهذه الأفعال الإخباريّة في هذا الخطاب هي إثبات، وتقرير حقيقة واقعية يحكمها المنطق، مفادها أنّ كلّ من استمع لحوادث الزّمان أو عاينها واعتبر منها أغناه ذلك عن خطب النّاس الواعظة، فقد اكتسب العظة معاينة وليس نقلا ومن ردع نفسه عن ارتكاب الآثام؛ كان ذلك سببا في وصوله إلى أعلى درجات الكرام، ومن لاحت له حوادث الدهر واعتبر منها، وتعلّم من نتائجها، أنارت له مبهمات الحوادث وأعطته خبرة في الحياة؛ تغنيه عن طلب النّصح، والشّورى إنّ هذه الأفعال، وما تحمله من قوة انجازيّة كامنة يمكن اعتبارها شواهد يبرهن بها الخطيب على

صدق ما يقرّره، كما ورد في الدّيوان أفعال كلاميّة مباشرة إخباريّة حاملة لشحنة تقريريّة رغبة من الخطيب في تبليغ قصده، على اعتبار أنّ «الأصل في الكلام القصد»[7] وتحقيق هدفه الخطابي دون إعطاء فرصة للمتلقي للتّهرب أو التّملص من مسؤولية الخطاب؛ لأنّها لا تحتمل إلّا تأويلا واحدا، ومن أمثلتها قول الخطيب: «**والأُمَم فِي فِرقِ أَديَانِهَا عَابدَة لأَوثَانهَا، عَاكِفةٌ علَى نِيرانِها، مُتمرِّدة في عُدوانِها، مُصرَّة على إِدمَانِها مُنكرة لله في عِرفَانِها، فأَنارَ اللهُ بمحمَّدَ صلَّى اللهُ عليه ظُلمَها، وفرَّجَ عَن القُلوبِ غِممَها، وجَلا عن الأبصارِ بَهَمَهَا**»[8]. بدأ الخطيب نصّه بأفعال كلاميّة إخبارية مباشرة؛ لأنّها نقلت واقعة بصورة أمينة صادقة أفادت الإخبار، والإعلام من خلال وصف المتكلّم لحال العرب قبل مجيء الإسلام، وهذا مكن قوّتها الإنجازيّة، فقد كَانَ العَربُ في جميع نواحي حياتهم مثالاً للتخلّف، والجهل والضّلال، معظم أفكارهم ومعتقداتهم كانت مبنيّةً على الباطل والعرف الخاطئ حتى بعث الله النّبي عليه الصّلاة والسّلام ليبدّد هذا الظّلام القاتم، وليضع للنّاس منهجًا ربانيًّا واضحًا في الحياة يضمن للنّاس حياة السّعادة والطّمأنينة التي ينشدون، وقد عبّر عن هذا الفضل بجملة من الأفعال الكلاميّة الإخباريّة التي تضافرت معا لتقرّ بهذه الحقيقة (**أنار، فرج، جلا**) فالزّمن الماضي كما هو معلوم يفيد تقرير الحقيقة، وقد كان الخطيبُ صادقا في إبلاغ هذه الحقيقة؛ لأنّه على علم ومخاطبه أيضا بفضل هذه الرّسالة السّماوية، التي جاء بها النّبي محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام على البشريّة قاطبة، والفعل التّأثيري النّاتج عن هذا القول هو حمل المتكلمّ مخاطبه على الإقرار بما أثبته، وذلك بوجوب اتّباع منهج النّبي محمّد بطاعته ومحبّته وتعزيره وتوقيره والقيام بأداء حقوقه التي أمر بها فطاعته من طاعة الله، ويتحدّث في خطبة له في عيد النّحر يصف كتاب الله قائلا: «**كتابُ الله بيِّنَة بَصائرُه وآيٌ مُنكشِفةٌ سَرائرُه، وبُرهانٌ مُنجَلِيَةٌ ظَواهِرهُ، مُديمٌ للبَريَّة إسماعَه، قَائدٌ إلى الرّضوانِ أتباعَه، مُؤدٍّ إلى النّجاة أَشيَاعهُ، فيه بَيانُ حُجَجِ الله المُنوَّرةِ، وعَزائمُه المفسّرةِ ومَواعِظُه المَكرَّرةِ، ومَحَارمُه المُحذّرة، جُملةً كَافيةً، وفِسرَةً شَافيَةً، وتبيَانَة**

جَالِيَةً»[9]، أنجز الخطيب في هذا النّص جملا إخباريّة تحمل قوّة إنجازيّة تقريريّة بيّنت حقيقة وضع الله للقرآن الكريم، وأثره في حياة الفرد المسلم، فهو كتاب تدعو آياته إلى الخير وتقود البشريّة إلى الرّشد، كتاب جامع شامل لأمور الدّنيا والآخرة، والفرد والجماعة؛ إنّه الدّستور المنظّم لحياة المسلم في جميع مناحيها وقد اعتمد المتكلّم –الخطيب– في ذلك على استخدام الأساليب المباشرة؛ لأنّها لا تترك للمرسل إليه مجالا للتّأويل، ولا توقعه في مزالق الفهم الخاطئ، فهناك سياقات تحتاج إلى هذا النّوع من الأساليب، التي لا تناسبها الخطابات غير المباشرة، التي تعطي الأولوية للمتأدّب، ومردّ ذلك إلى أسباب كثير منها ما يتعلّق بأولويّة التّوجيه على التّأدب، فالمرسل يولي عنايته فيها لتحقيق قصده، وتحقيق هدفه الخطابي[10]، وهو لَفَت الانتباه إلى أنّ القرآن معجزة خالدة، ولن يستطيع أحد المجيء بأصغر سورة، أو آية من مثله، ويرمي بذلك إلى أنّ الإسلام هو دين الحق الذي يجب إتباعه، وهو الفعل التّأثيري الناتج عن هذا القول.

2.2.التّوجيهيات Directives:

هي ترجمة لمصطلح (Directives)، ويستعملها المتكلّمون ليجعلوا شخصا آخر يقوم بشيء ما، و«غرضها الإنجازي محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما واتّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات worlds-to-words، وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في الإرادة أو الرّغبة الصّادقة، والمحتوى القضوي فيها هو دائما فعل السّامع شيئا في المستقبل»[11]، والأفعال التّوجيهية تربط المتكلّم بمخاطبيه؛ لذا فقد تنوّعت دلالة، ومقصديّة الأفعال التوجيهيّة في الدّيوان فهي تعدّ أصنافا جزئيّة من السّياق المقامي، «إذ يقصد المرسل انجازها، ويريد أن يدرك المرسل إليه هذا القصد»[12]، ومن أمثلة ما تضمّنه خطب ديوان الخطيب قوله: «**اقطَعُوا بتَقوَى اللهِ أودِيَة الأَعمارِ، وارفَعُوا في جهاد عدوِّ اللهِ أَلوِيَة الأبرار، واصدَعُوا بكِتابِ الله قُلوبَ المُنافِقين، وانزعُوا بادِّكار المَردّ إلى الله عن موبقات الأوزار والتَمسُوا كُنوزَ القُرآنِ في أَمثالِه وقِصَصِه**»[13]، نلحظ في النص استعمال

الخطيب للأفعال التوجيهية بصيغة الأمر (**اقطعوا، ارفعوا، اصدعوا، انزعوا، التمسوا**)، والأمر «هو طلب تحقيق شيء ما ماديّ أو معنوي، وتدل عليه صيغ كلاميّة أربعة هي فعل الأمر، المضارع إذا دخلت عليه لام الأمر، اسم فعل الأمر المصدر النّائب عن فعل الأمر»[14] وارتبطت الأفعال التّوجيهية السّابقة بضمير متّصل (**واو الجماعة**)، وهُو يُحيل على المخاطب، ولكنه غير معروف لدينا، وعليه فإنّنا نرجّح أن يكون المحال عليه بهذا الضمير أهل عصر الخطيب، ونخصّ منهم المجاهدين في سبيل الله فإنّهم بحكم الافتقار إلى القرينة اللّفظيّة الصّارفة، المعنيون بالخطاب قبل غيرهم وقوّتها الإنجازيّة تكمن في الحثّ والتّشجيع، بشحذ الهمم ورفع الروح القتاليّة وقد استخدم الخطيب سلطة الخالق (الله عزّ وجلّ) عندما جعل عدوّهم عدوّ الله وبذلك يكون قتال العدوّ قتالا لعدوّ الله، ممّا يضفي على المعركة الصّفة الدّينية والشّرعية، واتجاه المطابقة في تلك الأفعال كان من العالم إلى الكلمات؛ أي جعل الواقع يلائم الكلمات فقد «شهِدت الفترة التي عاشَها ابنُ نباتة صراعات داخليَّة، وتفكُّكًا في الولايات الإسلاميَّة وتعرَّضت حدودُ الإسلام لهجمات شرِسة من قِبَل الرّوم، ثمَّ ظهور حركات منحرِفة كالقرامِطة وغيرهم»[15]، والفعل التّأثيري المطلوب حصوله من هذه التّوجيهيات هو دفع المتلقّي، وحثّه على الجهاد نظرا للقيمة العليا لهذا الحدث، وتأثيره على مصائر المسلمين، ويمكن تمثيل ما سبق بالمخطّط التّالي :

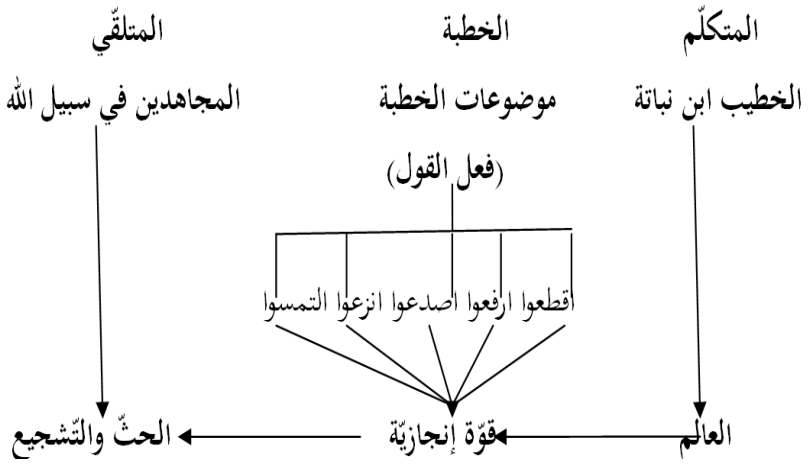

ويقول أيضا في خطبة يذكر فيها دخول شهر رمضان: «**اقتحمُوا حَلبةَ السِّباق إلى الفوزِ الأكبرِ، واغتنمُوا صُحبَة الرِّفاقِ في الشَّهرِ الأَزهَر، وتسبّبُوا لادّخار الزّاد في العمر الأقصر، وتأهّبوا للمعادِ إلى يومِ المحشرِ، فقد عَمَّتكُم–رحمكُم الله– من شَهرِ رَمضانَ النِّعمةُ السَّابغَة، ولزِمتكُم من الله الحُجّةُ البَالغَة**»[16]، يتوجّه الخطيب بهذا القول إلى مخاطبه، الذي استحضره في ذهنه لحظة إنشاء الخطاب ونرجّح أن يكون ذلك المخاطب المستحضر، أهل زمان الخطيب ابتداء، ثمّ لا مانع من أن يتّسع الخطاب لكلّ من قدر له أن يتلقاه ولو بعد حين، واعتمد في هذا القول على الفعل التّوجيهي الذي تضمّنه الأمر في الأفعال: (**اقتحمُوا، اغتنمُوا، تسبّبُوا، تأهَّبُوا**)، وقوّتها الإنجازية هي التّوجيه والإرشاد، من خلال توجيه المخاطب إلى حمل نفسه على الطّاعة والاجتهاد فيها، في شهر رمضان الذي يكون فيه الأجر مضاعفا، والمخاطب ليس جاهلا بهذا الأمر، لكنّه في غفلة عنه؛ لذا افترض المتكلّم وجود هذه المعلومات لدى المخاطب؛ لأنّه مسلم فذكّره بها للضّفر بالمبتغى ألا وهو إعداد الزّاد ليوم الحساب، والتزم ابن نباتة في هذا التّوجيه بالرّغبة الصّادقة؛ لأنّه إمام فقيه دوره توجيه، وإرشاد أمته، والفعل التّأثيري المتوخّى من قول الخطيب هو نصح مخاطبِه، وإرشاده إلى بذل الجهد، والإسراع في اغتنام فرص مواسم الخير التي امتنّ بها الله

على عباده، ومنها شهر رمضان الذي تُضاعَف فيه الحسنات، وتمحى السيئات، وترفع الدرجات، ويقول أيضا: «**وكُونُوا قومًا سلمت قُلوبُهم من دنس النِّفاق، واتَّخذُوا العدّةَ لِيومِ التَّلاقِ فإنَّ الأجرَ على حَسبِ الأَعمالِ وَزنًا بِوزنٍ، وَمِكيَالًا بِمكيَالٍ، ومَن كَانَ معَ الله، كانَ اللهُ معه، ومَن زَرعَ التّقوَى حمَد عندَ الحَصادِ ما زَرَعهُ، فلا تَجعلُوا لِمعاصِي الله عليكُم سَبيلًا ولا تشتغلُوا بالدّنيا اشتغالَ مَن لا يَجدُ عَنهَا تَحوِيلًا، وأرفُضُوها فلَيسَت لكم مقرّا، ولا مَقِيلا واعملُوا للآخرة، فإنّها خير لمن اتَّقَى، ولا تُظلمُون فَتِيلًا**»[17]. المخاطب في هذا النّص غير مدلول عليه بظاهر اللفظ، وإنّما يستخلص استخلاصا وذلك المخاطب هو أهل عصر الخطيب، وكلّ من قدّر له أن يتلقى الخطاب، ولو بعد حين، وقد بدأه الخطيب بأمر(**كونوا، اتخذوا**)، وهو يتضمّن فعلا كلاميّا توجيهيّا غرضُه الإنجازي هو النّصح والإرشاد، من خلال دعوة الخطيب المتلقي إلى أن يكونوا قوما صادقين، قلوبهم غير مدنسة بالنّفاق وكذلك مستعدّين للقاء المولى الذي يحاسبهم على أعمالهم التي اجترحُوها في حياتهم الدّنيويّة، ثم جاءت بعده جمل توجيهيّة تحمل قوّة إنجازيّة لإقناع المستمع (**فإنّ الأجر على حسب الأعمال وزنا بوزن، ومكيالا بمكيال ومن كان مع الله كان الله معه، ومن زرع التقوى حمد عند الحصاد ما زرعه**)؛ إذ أنّ المتكلّم يحاول انجاز الفعل التّأثيرى في مخاطبه، ليبدأ فورا بالفعل المطلوب منه، ثم اتّجه ابن نُباتة إلى صيغة النّهي (**لا تجعلوا، لا تشتغلوا**) والنّهي «هو طلب الكفّ عن شيء ما مادي أو معنوي، وتدل عليه صيغة كلامية واحدة وهي، الفعل المضارع إذا دخلت عليه"لا" النّاهية»[18]، وهذه الصّيغة فعل كلامي توجيهيّ حملت في النّص قوّة إنجازيّه تتمثّل في تحذير المخاطب من الانزلاق في المعاصي، والاغترار بالدّنيا، والانغماس في ملذّاتها إذا ما هي أقبلت، وبسطت سلطانها عليه، وبعدها يعزّز خطابه بأفعال توجيهيّة صيغتها الأمر (**أرفضوها، اعملوا**)، يدعو من خلالها الخطيب إلى الابتعاد عن الدّنيا الزّائلة، بتجنّب شهواتها، والعمل للآخرة الدّائمة التي لا يظلم فيها مثقال ذرّة، فالجزاء فيها من جنس

العمل، والفعل التّأثيري المرجوّ حصوله من جملة هذه الأوامر، والنّواهي هو سعي المخاطب حثيثا وأن لا يدّخر جهدا في العمل، والاتّصاف بكلّ ما من شأنه أن يقرّبه لله، واجتناب كل ما يبعده عن الطّريق المستقيم الذي رسمه الله حتّى تكون خاتمته سعيدة ويكون له مقام رفيع عنده عزّ وجلّ.

والاستفهام من الأفعال التي تنتمي إلى صنف التّوجيهيّات إذ «يعدّ استعمال الأسئلة الاستفهاميّة من الآليّات اللّغوية التّوجيهيّة، بوصفها توجّه المرسل إليه إلى خيار واحد، وهو ضرورة الإجابة عليها، ومن ثمّ، فإنّ المرسل يستعملها للسّيطرة على مجريات الأحداث؛ بل وللسّيطرة على المرسل إليه، لا حسب ما يريده الآخرون، وتعدّ الأسئلة خصوصا الأسئلة المغلقة من أهمّ الأدوات اللّغوية لإستراتيجية التّوجيه»[19]، ومن أمثلته في خطب الديوان: « **مَن أَسوَأ حَالاً مِمَّن استعبَده هَواهُ، أم مَن أكسَفُ بَالًا مِمَّن أَبعدَه مَالكَه ومَولَاه، أم مَن أَخسَر صَفقَة مِمَّن بَاعَ آخرَتهُ بِدُنيَاه، أم مَن أَكبَر حَسرةً مِمَّن كَانَت النَّار مُنقَلَبَه ومَثوَاه، فمَا للغَفلَة قد شَملَت قُلوبكُم، ومَا للغَيرَة قد سَترَت عنكُم عُيوبَكم، ومَا للطَّمعِ صغَّرَ عِندَكُم ذُنوبَكم**»[20]. المخاطب في هذا المقطع هو ما يحيل عليه ضمير الغائب (الهاء)، وهو غير معروف وقصارى ما نعلم من أمر هذا الضّمير، أنّ الخطيب يخاطب شخصا هو عندنا إنسان عصره؛ إذ هو المعني بالخطاب أوّلا، ولا مانع بعد ذلك أن يتّسع الخطاب لكلّ متلق، وإن لم يقصد إليه الإمام قصدا على وجه التّعيين، وبُني هذا المقطع على استفهام أداته "مَنْ" التي يسُأَل بها عن العاقل، والذي خرج به الخطيب من حقيقة السّؤال إلى فعل إنجازي آخر هو التّوجيه والإرشاد؛ لأنّ الخطيب من خلال هذا الاستفهام نقل أذهان السّامعين إلى مفاضلة عقليّة بين عناصر خارجية محكومة بوقائع ثابتة، فقسّم أحوال النّاس على أصناف منهم من كان حرّا في معيشته لا يرى ربّا غير خالقه، ولا يرى نفسه عبدا إلّا لله، ومنهم من كان تابعا لهواه مستبعدا لملذّاته، ثمّ قسّم النّاس على أحوال أخرى، فمنهم من كان باله مرتاحا حينما قرّبه مولاه، وخالقه منه،

وجعله في الدّرجات العليا، ومنهم من كان كسيفا باله مذموما؛ حينما أبعده مولاه عنه، ثم رتّب الحقائق في سلّم آخر عندما جعل في حياتهم وكأنّهم يعقدون صفقات تجاريّة، فمنهم من باع دنياه بآخرته، ومنهم من باع آخرته بدنياه ثم جعل النّاس فيه على درجات منهم، مَن تكون الجنّة مثواه فيعيش هانئا مرتاح البال، متنعما، حامدا وشاكرا، ومنهم من تكون النّار مثواه فلا توجد أكبر من حسرته، وكلّ تلك الأصناف الموضوعة لأحوال النّاس كانت تصبّ في خانة واحدة، وهي حثّ المتلقّي وتوجيهه على أن يكون من صنف الأقسام المفضّلة، والتي جعل الخطيب أفضلها من كان عبدا لله وترك هواه، ومَن قربه مولاه منه درجات، ومَن ربحت صفقته بأن باع دنياه بآخرته، ومَن كانت الجنّة مثواه، وهذا ما يهدف إليه الفعل التّأثيري في الخطاب.

3.2.الوعديّات Commissives:

والمقصود بها «تلك التي يستعملها المتكلّمون ليلزموا أنفسهم بفعل مستقبليّ، لأنّها تعبّر عمّا ينويه، وهي وعود، و تهديدات، وتعهّدات، ويمكن أن ينجزها المتكلّم فقط باعتباره عضوا في مجموعة»[21]، وقد كان حضور الوعديات في خطب الديوان قليل ومن أشكال تجسيدها فيه قول الخطيب: « **فحتَّامَ وإلامَ وعَلامَ التَّخلُّف والمَقامُ، أَتطمَعُون في بقاء الأبدِ، كَلّا، والواحدُ الصّمدُ إنّ الموتَ بالرَّصدِ، لا يُبقِي مِنكُم عَلى أَحدٍ، فكَأَن دَارَت عَليكُم دَوائرُه، ودَهمتكُم عَساكِرُه وكَشفَت لكُم سَرائرُه...**»[22]. أورد الخطيب في بداية النّص أفعالا كلاميّة صيغتها الإستفهام الذي خرج عن قوته الحرفية إلى انجاز الاستبطاء في قوله: (**فحتام وإلام وعلام التخلف والمقام؟**)، أي تخلّف المخاطب عن ركب الطّاعة الإلهيّة مظنّة خلوده في هذه الدنيا، ثم أفاد معنى النّفي في قوله (**أتطمعون في بقاء الأبد؟**) أي نفي بقاء خلودهم المزعوم، ثم جاء بفعل كلامي وبكّت به حججهم في قوله: (**كلا والواحد الصمد إن الموت بالرصد، لا يبقي منكم على أحد...**) وهو من صنف أفعال الوعد التي تفرض على الكلام التزاما معينا بكلامه وهنا المتكلّم يملك

سلطة استقاها ووفّر المقبولية لها الاقتضاء المشترك بينه، وبين المتلقّي فحقيقة الموت ظاهرة للعيان، ومتّفق عليها من لدن طرفي الخطاب، فلا يحتاج الخطيب إلّا إلى التّذكير بها، واستعمالها بوصفها سلطة قوليّة تساعده في عمليّة الإقناع وصولا إلى غاية الحدث الإقناعي، وهو الوعظ بما له فائدة على المتلقّي، ويقول الخطيب: «**أُوصِيكُم عِبادَ الله، وإيَايَ بتَقوَى الله، فإنَّها أمنع المَعاقِل وأَنفَع الوَسائِل، مَن لَزِمَها فَازَ، وسَلِمَ، ومَن حرمها امتازَ ونَدم**»[23].في هذا النص غرض الفعل الكلامي إنجازي، ويتمثّل في التزام التّقوى واتّخاذها شعارا لا يحاد عنه، وقد صرّح الخطيب أسباب التّمسّك بها، ولكلّ من التزم بها فهي كالدّرع الحصين له، كما تعود عليه بالخير النّافع، ويظهر فعل الوعد في قوله: **(من لزمها فاز وسلم، ومن حرمها امتاز وندم)** فالخطيب قطع على نفسه وعداً لمتلقيه بأنه إذا لزم التقوى كان من الفائزين، وإن حرمها كان من النادمين، والمحتوى القضوي لنتيجة هذا الالتزام أو عدمه ستحصل مستقبلاً عند الباري عزّ وجلّ، والخطيب في قطعه لهذا الوعد كان صادقا وموقنا بتحقّقه؛ لأنّه استقاه من حقيقة يؤمن بها هو ومتلقّيه و هي القرآن الكريم إذ قال عزوجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾-(القمر:54-55)-، والفعل التّأثيري المقصود هو جعل المتلقّي تقوى الله ذخره في حياته، فمع أنّ الخطيب يخيّر متلقّيه بين طريقين ويستعمل في ذكرهما المتناقضين (الفوز والندم)، ولكن تخييره يضمر توجيها لأحد الطّريقين ويضمر فرضا لإحدى الجهتين من خلال ذكر مساوئ طريق النّدم ومحاسن طريق الفوز وهذه المقابلة دفعت بالمسار الإقناعي للمتلقي لاختيار الوجهة الصّحيحة، وفي خطبة له في الموت يقول: «**حَاكِمُوا نُفوسَكم الظَّالمَة إليها، وتَحمّلُوا بها في خلاصِها عليها، وذَكِّرُوهَا أهوَالَ مَا بينَ يَديهَا، واعلَمُوا أنَّ المَوتَ مَعصُوب برُؤوسِكم ومُنشِب مَخالبَه في نفوسكم**»[24]. ابتدأ الخطيب خطابه بمجموعة من الأفعال الكلاميّة التي اكتسبت قوّة إنجازيّة من معانيها المستلزمة التي ثوت خلفها فقوله:(**حاكموا نفوسكم الظالمة إليها، وتحمّلوا بها في خلاصها عليها**)، أفعال

كلاميّة قوّتها الإنجازية التّهديد والوعيد للإنسان الذي يهمل مراجعة نفسه بقرينة (الظالمة)، ثم استعمل الخطيب خطابا تلميحيا آخر بقوله: (**واعلموا أنّ الموت معصوب**...)، فبما أنّ المقام هنا هو مقام تهديد، ووعيد تخيل الموت كالوحش له مخالب فقد ركّز الخطيب في ذهن المتلقّي بأنّ من يعص الله سيكون عقابه أليما، وكذلك فإنّ الوحش عندما يفترس الأشياء، وينشب مخالبه فيها فإنّ ذلك من أقسى الآلام التي يتحمّلها المفترَس فقوله (أي قول أذكره توضيحا...) كناية عن عقاب العاصي بعد الموت . وكلّ تلك الأفعال الكلاميّة التي تضمّنت التّهديد، وتنفيذ الوعيد، تصنَّف ضمن الأفعال الالتزاميّة التي تجعل المتكلّم يلتزم بفعل الشيء، وقد حقّق المتكلّم أفعاله الإنجازيّة هذه لتوفّرها على شروط الاستعلاء، والسّلطة فالمخاطَب، وحتى المتكلّم باعتبارهما مسلمين مؤمنين بالغيب لا يختلفان في أنّ الله سيحاسب كلّ إنسان على أفعاله بعد مماته وسيجازيه الجزاء الذي يستحقّ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(البقرة:281).

4.2. التّعبيريات (Expressives):

وترجمت أيضا إلى التّصريحيّات، وهي«تلك التي تبيّن ما يشعر به المتكلّم فهي تعبّر عن حالات نفسيّة يمكن لها أن تتّخذ شكل جمل تعبّر عن سرور أو ألم أو فرح، أو حزن أو عمّا هو محبوب أو ممقوت، يمكن أن يسبّبها شيء يقوم به المتكلّم أو المستمع، غير أنّها تخصّ خبرة المتكلّم، وتجربته»[25]، فوجهة الإنجاز فيها «هو التّعبير عن الموقف النّفسي تعبيرا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصّنف اتّجاه مطابقة، فالمتكلّم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي، ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات، وكلّ ما هو مطلوب الإخلاص في التّعبير عن القضيّة، ويدخل في هذا الصّنف أفعال الشّكر والتّهنئة، والاعتذار، التّعزية، والتّرحيب»[26]، ومن أمثلة هذا الصّنف قول الخطيب: «**إنَّ الدَّهرَ ذُو عَجبٍ يَتقلَّبُ بِأهلِه كلّ مُنقَلبٍ، عِداتُه خِدعٌ، وهِباتُه لُمَعٌ مِنه، وآفَاتُه دُفعٌ، وكرَّاتُه**

قُرعٌ، لا يَدعُ جَديدًا، إلّا أَخلَقه، ولَا عَتيدًا إلّا أنفَقُه، ولَا مَريدًا إلا وهَّقَه، ولَا عَديدًا إلّا فرّقه، أدَار رَحى المُنون على مَن سَلَف، وسيُوردُ مَوارِدَهُم مَن خَلَف حتَّى يُلحقَ بعضًا بِبعض»[27]. فالمخاطب في هذا النّص هم أهل زمان الخطيب؛ لأنّ أهل زمان كلّ عصر معنيّون قبل غيرهم بخطاب أهل زمانهم، والخطيب يعبّر فيه متعجّبا من حال الدّهر مع النّاس، وما فعله بهم، وكيف أنّه يتقلّب بهم من حال لحال، فيصف فعله معهم (**عداته خدع هباته لمع منه آفاته دفع،... ، أدار رحى المنون على من سلف، وسيورد مواردهم من خلف**)، فالفعل الكلامي التّعبيري هنا هو الأسى، والتّحسر على حال الخلق مع الدّهر الذي يعيشون فيه، والخطيب يسعى لوصف شعوره هذا، والتّعبير عن موقفه، وما يراه اتّجاه ذلك، من أجل التّأثير في المتلقّي، وحمله على الاعتبار من أحداث الدّهر مع النّاس لأجل أن يغتنم حياته بما فيه خير له بعد أن يكون قد استحضر الموت والحساب، ويقول أيضا: «**مَا الانتِظارُ بِطولِ الغَفلَة عمّا أنتم إليه مُوجفُون، ومَا الاعتِذاز عِندَ التَّقرِير بمَا أَنتُم به مُعترِفُون، كَلَّا لَتعُضنّ الأنَامل على التّقصيرِ، أَسفًا، وليفضَنَّ الكتابُ عمّا لا تَجدُون عنه مُنصرفًا، يومَ عَطشِ الأَكبادِ، وذُبولِ الشِّفاهِ، يومَ نُطقِ الجَوارِح وخَتمِ الأفوَاه، يومَ يُعرفُ المُجرمُون بوَشمِ الجِباه، يومَ لا تملِك نَفسٌ لنَفسٍ شَيئا، والأمرُ يومئِذٍ لله**»[28] المخاطب في هذا النّص هو ما يحيل عليه الضّمير "أنتم"، وهو لا يعدو أن يكون أهل زمان الخطيب فهم المعنيّون بالخطاب دون سواهم، ولا مانع بعد ذلك أن يتّسع الخطاب لكل من قدِّر له أن يتلقّاه، والخطيب يتحدّث، وهو في حالة تعجّب من الحال الذي آل إليه الغافلون في هذه الدّنيا الذين يعيشون حالة لامبالاة غير آبهين بما ينتظرهم من حساب، وعذاب وحملت عبارة (**كلّا لتعضنّ الأنامل على التّقصير أسفا**) جزاء هذه الغفلة المطبقة على قلوبهم، وهي توحي بطاقة تعبيرية كبيرة، قوّتها الإنجازية تعبّر عن حالة النّدم الشّديدة التي يعيشها ذلك الغافل، الذي قصّر في حق الله عند لقاء ربه يوم القيامة والذي قدّم له الخطيب أوصافا –(**يوم عطش الأكباد وذبول الشّفاه، يوم نطق**

الجوارح وختم الأفواه، يوم يعرف المجرمون بوشم الجباه، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا)– قوّتها الإنجازيّة توحي بحالة الخوف التي يعيشها الإنسان المقصّر من هول وعظمة هذا اليوم خاصّة عندما تشهد عليه جواره بما عملته، بعدما أنطقها الله الذي أنطق كلّ شيء، فلا يمكن حينها الإنكار، ولا عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم، في ذلك اليوم يعرف المجرمون وسماهم في وجوهم من أثر التّقصير، والمخاطب هنا يعلم بعض هذه الأمور، وافترض الخطيب وجودها لديه؛ لأنّها وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾– (ياسين:65)، وإنجازيّة الأفعال التّعبيريّة السّابق ذكرها تكمن في تثبيتها للفعل القولي، وتتعدّى إلى التّأثير في المتلقّي لإحداث الأثر النفسي فيه من خلال رسم طريق سلوك المتلقّي بشكل إيجابي، وذلك بإقناعه بأهميّة الالتفات إلى نفسه الغافلة ليحاسبها على ما كان منها من تقصير، ولا سيما، وأنّ سبيل إقناع النّفس وردّها عن غيّها متاحة لكلّ مسلم ذي عقل يفكّر به خاصّة، وأنّ لها ربّ سيحاسبها وجزاء سينتظرها، وفي خطبة له عن عيد الفطر يقول فيها: «**اللهُ أكبر الله أكبر واجتنبُوا الخمرَ فإنَّها أوبقُ مصائِد الشّيطان، ورأسُ الإثمِ والعُدوانِ، ومِفتَاح الفُسُوق والعِصيان، وأَعطَب موارِدِ الإنسانِ، تُزيلُ مَا ألبَسكُم اللهُ بَهجتَه، وألزَمكُم بكُم حُجّته، وسَلك بكُم مَحجَّتهُ من العقل الذي مَن عَدمَه بهِم، وَمن لَزِمهُ عَلم ومَن إِنْتَمَّهُ سَلمَ**»[29]. عبّر الخطيب في هذا النّص عن الشّعور الذي يشعره اتّجاه ما حرّمه الله ألا وهو الخمرة، فبالرّغم من كون نصّ الخطبة توجيهيّا، إلّا أنّ الخطيب عبّر عن فاحشة شرب الخمر ووصفها بأوصاف بيّنت خطورتها على الفرد والمجتمع، وذلك إنَّها مفتاح كلّ شرٍّ ومنفّذ كلّ بلاء، فهي تجمع كل الخبائث الدّينية والدنيوية، فصاحبها مفسدة لعقله، مفسدة لبدنه وقوته ومنهكة لصحّته، وقد ولّدت تلك الأوصاف التي نسبها الخطيب للخمرة فعلا تعبيريّا، بيّنت قوّته الإنجازيّة مدى كره الخطيب، وشدة مقته، واستقباحه لهذا الفعل الذي سمّي بأمّ الخبائث، وذلك من أجل أن ينفرَ

الخطيب المتلقّي منها، ويرشده لاجتنابها بعدما أعلمه بخطورتها، وهو الفعل التّأثيري المرجو تحقيقه من قبل المتكلّم وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ أثر الفعل التّعبيري يتجاوز صاحبه ليحقّق أغراضا إنجازيّة أخرى غير التّعبير عن الموقف النّفسي، إذ ليس من اللّازم، أن تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاصّ بالمتكلّم من أحداث، بل تتعدّاه إلى ما يحدث للمشاركين في الفعل.[30]

5.2. الإيقاعيات (Declaratives): هي الصّنف الخامس من الأفعال السّورلية تتحقّق حين التّلفظ بذاته[31]، وما يميّز هذا الصّنف من الأفعال «أنّ أداءها النّاجح يتمثّل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي...، وأهمّ ما يميّز هذا الصنّف من الأفعال عن الأصناف الأخرى، أنّها تحدث تغييرا في الوضع القائم، فضلا على أنّها تقتضي عرفا غير لغوي، واتّجاه المطابقة في أفعال هذا الصّنف قد يكون من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص»[32]، ومن أمثلتها في خطب الدّيوان نجده يقول في أحد خطب الجهاد معلّلا سبب هزيمة المسلمين: «**واللهِ لَو صَفتْ الضَّمائِر مِن كدرِ نِفاقِها، وانكَفَت السَّرائِر إلى الثِّقة بخلّاتها لأَعذَب لكُم من الحياة مُرَّ مَذاقِها، ولَحكَّم سُيوفَكُم فِي قُلَلِ الأَعداءِ وأعنَاقِها، ولكن قِلَّة نَصرِكُم إِيَّاهُ فَقلَّ النَّصيرُ، وجَعلتُم كِتابَه وَراءَ ظُهُورِكُم، واعتَصَمتُم بِغيرِ حَبلِه، فكَبُر عِندكُم الصَّغيرُ، وأَفشَيتُم بَينكُم الفَواحِش فَفَشَا فِيكُم التَّقصِيرُ، وَحَجَبتُم قُلوبَكم بالقَسوَة فلَم يَصل إليهَا التَّحذيرُ، وأهمَلتُم النَّفيرّ إلى أَعداءِ الله، فاتَّصَل إِليكُم النَّفيرُ**»[33]. المتكلّم في هذا النّص هو الخطيب، ويُحيل عليه السّياق الخَارجي، والفعل الإيقاعي تتحدّد دلالته بمجرّد نطق المتكلّم بها، ويكون هذا الفعل موحي بالدّلالة المقصودة، وهي هنا القسم بالله –(**والله**)– من قبل الخطيب، وهذا القسم منسوب له، وأداؤه تمّ بنجاح؛ لأن الخطيب تلفّظ بحلف ليصف وضعا معيّنا ويؤكّد عليه، وهو الأسباب الكامنة وراء هزيمة المسلمين في حروبهم التي أرجأها إلى ضعف إيمان النّفوس بالدرجة الأولى، والفعل التّأثيري النّاجم عن ذلك هو حمل

المتلقّي على الإقرار بكون الهزيمة مركونة للنفس، وإذا ما أراد الانتصار في حربه، فما عليه إلّا أن يخلص النّية، ويتّكل على الله، ويقاوم شهوات نفسه، ويلجمها عن المعاصي، ويقول أيضا: «**وإنّي وإيَّاكُم لَفقراءَ إلى رحمَة مَولَى سَبق إفضالُه، وعمَّ كَرمهُ وإجمَاله، فوَا أسَفا على التَّقصِير، و وَاحذَرا مِن حُلُولِ نِقمَتِه، وَ وَا حُزنًا مِن تَوبيخِه إيَّايَ في مَحفلِ القِيامَة عَلى رُؤوسِ الخَلائِق عَامَّة**»[34]. أنجز الخطيب في هذا النّص فعلا إيقاعيّا عند تلفّظه بقوله (**وإنّي وإيّاكم لفقراء إلى رحمة مولى سبق إفضاله، وعمّ كرمه وإجماله**) إذ أَعلَن من خِلالِه ضعفه، وأدلى به أمام الله فهو يعتبر نفسه العبد الفقير إلى الله الذي منّ عليه بالنّعم التي لا تحصى، وأكرمه بكلّ خير في هذه الدّنيا، ويلاحظ في ذلك أنّه ابتدأ خطابه بأداة التوكيد "إنّ" التي أدّت غرضا تداوليّا إنجازيّا، يتمثّل في شدّ الأسماعِ، وتأكِيد المسألة التي يريد الإشارة إليها وبيانها وأداؤُه تمّ بنجاح خاصّة عندما أكّد كلامه مرّة ثانية بلام التّوكيد (لفقراء)، ولم يستثن الخطيب المتلقّي فيما أقّر به، والذي دلّ عليه الضّمير المخاطب المتّصل "كم" وهو من بدائل الضّمير "أنتم"، وهذا المخاطب هو أهل زمانه؛ لأنّهم الملزمون بالخطاب قبل غيرهم –بحكم واقع الحال– وذلك يستلزم فعلا تأثيريّا هو تنبيههم، وإرشادهم لحالة الغفلة التي هم عليها بالإسراع بالتّوبة، والرّجوع إلى الله عزّ وجلّ، ثمّ يردف ذلك الفعل الإيقاعي بفعل تعبيري كان أسلوب النّدبة–(**وا**)– أداته، وقد عبّر من خلاله عن أسفه وحسرته على التّقصير فيما أمره الله، وعن خوفه من حلول نِقمتِه، وحزنه يوم القيامة عند محاسبته أمام الخلق، وهذا يدلّ على شدّة إيمان الخطيب وورعه وزهده في الدنيا، ويقول الخطيب في إحدى مقدّمات خطبه: « **الحمدُ للهِ عَلى مَا سَاء وسرَّ من القَضَاء وأشهد أن لا إلهَ إلّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له، رَبَّ الأرض والسّماء، وأَشهدُ أنَّ مُحمّدا عبدُه ورسولُه، خَاتِم الرُّسلِ، والأَنبِياءِ، وسَيِّد الأُمنَاء صلّى الله عليه، وعلى آله في جميع الأوقاتِ والأَناءِ**»[35]. بعدما حمد الخطيب الله عزّ وجلّ حمدا موقنا بإيمان صادق، أدّى فعلا كلاميّا تمثل في أداء الشهادة بالله، وإفراده بالرّبوبية، وغرضه إنجاز إعلان

الخضوع، والامتثال لأوامر الله تعالى، وتجنّب نواهيه، والاعتماد عليه في جميع الأمور، ثمّ قدّم فعلا كلاميّا آخر كشهادة ثانية يعلن فيها الامتثال التّام لأوامر رسول الله صلّى الله عليه وسلم، باعتباره رسولا مبعوثا من عند الله، ختم به الأنبياء والمرسلين، وقد جاء الفعل الكلامي بزمن الحاضر الذي يدلّ على الاستمراريّة (**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله**)، وقد أعلن به الخطيب إيمانه منذ تلفظه به إلى غاية موته، فالفعل الكلامي وقع بمجرد نطق الإمام به بإعلان شهادته مخلصا فيها لله تعالى ولمحمّد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ونجد هذا الفعل الإيقاعي قد وُظِّف في جميع مقدّمات خطب الدّيوان، فالخطيب لم يخرج عن سُنن الأوّلين في الابتداء بحمد الله تعالى، والحديث عن ذاته وصفاته وأسمائه ووحدانيته وغير ذلك والإشادة برسول الله، وذكر فضله ومآثره، ولا يجوز بأيّ حال إهمالها في مثل هذه الخطب الدينية، فهي سنّة علّمنا إياها رسول الله واقتفاها من بعده الخطباء، ويقول في أحد خطبه الثّواني: «**اللَّهمَّ عُمّ بالصّلاحِ والتّوفيقِ رَعايَا المسلمين ورَعاتَهم وأُمراءَهم، وولّاتَهم، وحُكّامهم، وقُضاتَهم، وعُلماءَهم وهُداتَهم وعمَّالهُم وكُفاتَهم، وأيّد اللّهمّ بعَونِك أنصارَهم، وحُماتَهم، واجمع فِرقَهُم وأَشتَاتَهم، واحرس اللّهَمَّ فُرسَانهُم، وكُماتَهم**»[36]. فالغرض الإنجازي للفعل الكلامي في هذا النّص هو الدّعاء ونسبته تعود إلى المتكلّم وحسب السّياق الخارجي فهو هنا الخطيب ابن نباتة الفارقي، وقد توفّرت فيه نيّة الدّعاء فتحقّق شرط الإخلاص والقصد، إذ أنّ الفعل الإيقاعي أنجز عند تلفّظ المتكلّم به، ووقع فعل الدّعاء، وهو ما دلّت عليه عبارة (اللّهم) الذي يبلّغه الخطيب إلى الله تعالى؛ ويعلن اتّجاهه قصد طلب الصّلاح لرعايا المسلمين في كلّ الأمور، والغرض التّأثيري للفعل الإنجازي الإيقاعي هو توثيق الصّلة بين العبد، وربّه وزيادة قوة إيمانه، ونجد الخطيب أيضا يلتزم في ديوانه بالدّعاء؛ إذ لا تستقيم خطبة عنده دونه، وهو ما جرت عله العادة في الخطب ختمها بالدّعاء، والمتصفّح لها يجد أنّ الدّعاء فيها جاء مُوجزا يتلاءم مع موضوعها، وقد يأتي مطوّلا متعدّد الجوانب يتّصل بالدّعاء

لرسول الله والملائكة المقرّبين والأنبياء والمرسلين وأهل الطّاعة أجمعين، وقد يخصّه لولاة المسلمين بمختلف طبقاتهم.

الخاتمة:

ونخلص ممّا تقدّم أنّ الأفعال الكلاميّة قد برزت في خطب ابن نباتة بمختلف أنواعها وبدرجات متفاوتة (إخباريّة، توجيهيّة، وعديّة، تعبيريّة، إيقاعية)، إذ غلبت الإخباريّات والتّوجيهيات على بقية أصناف الأفعال الكلاميّة، وقد وظفت الأفعال الكلامية بمختلف أنواعها كإستراتيجية أسلوبيّة في الخطاب الديني عند الخطيب لتأدية مجموعة من الوظائف غايتها التّأثير في المخاطب، وتغيير واقعه الإنساني، فلا يخلو خطاب الإمام من الفعل التّأثيري، الذي يهدف من ورائه إلى الإصلاح، وعلى جميع الأصعدة، الدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة بالإضافة إلى بناء الإنسان عقليّاً وروحيّاً على وفق الثّقافة الإسلاميّة الصّحيحة.

الهوامش و الإحالات:

[1] شيتر رحيمة، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب و اللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، السنة الجامعية : 2008-2009م، ص148.

[2] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصردار المعرفة الجامعية، ط1، 2006م، ص59.

* **ابن نباتة الفارقي(335هـ–374هـ)**: هو الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الحذاقي الفارقي وحُذاقه بطن من قضاعة وقبيلة من إياد، والفارقي نسبة إلى بلده ميافرقين، أما عن أخبار هذا الخطيب المِصقع، لم يرد فيها سوى نُتف قليلة عنه تدل على زهده وتقاه وتفصح عن ورعه وصلاحه، فقد جاء فيها أنه كان خطيب (حلب)و بها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان، وكان سيف الدولة آنذاك كثير الغزوات، ولهذا أكثر ابن نباتة من الخطب الجهاد، ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة سيف الدولة. ينظر: عبد الرحيم بن محمد بن نباتة، ديوان خطب ابن نباتة، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، الوعي الإسلامي، الكويت، ط1، 2012م، ص 15-16

[3] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 78-79.

[4] ديوان خطب ابن نباتة، ص 199.

[5] أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق، دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015م، ص 424.

[6] ديوان خطب ابن نباتة، ص 222.

[7] طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م، ص 103.

[8] ديوان خطب ابن نباتة، ص327.

[9] ديوان خطب ابن نباتة، ص328.

[10] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2004م، ص 32.

[11] أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق، ص 384.

[12] علي آيت أوشان، السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ، المغرب ط1، 2000م، ص60 .

[13] ديوان خطب ابن نباتة، ص 302.

[14] عبد الرحمان حسن حبكه الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها، وفنونها، دار القلم، دمشق، (دط)، 1996م، ج1، ص228.

[15] مرشد الحيالي، ديوان ابن نباتة في الميزان، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة، 2010/06/19م، تاريخ الزيارة 2019/03/23، في الساعة 21:51، https://www.alukah.net/sharia/0/22791/.

[16] ديوان خطب ابن نباتة، ص 88.

[17] ديوان خطب ابن نباتة، ص 364-365.

[18] عبد الرحمان حسن حبكه الميداني، البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، ج1، ص 231.

[19] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص35.

[20] ديوان خطب ابن نباتة، ص 146.

[21] جورج يول، التداولية، ص 91.

[25] ديوان خطب ابن نباتة، ص 147.

[23] ديوان خطب ابن نباتة، ص57.

[24] ديوان خطب ابن نباتة، ص 155.

[25] جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار العربية للعلوم، الرباط، (دط)، 2010م، ص67.

[26] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 80.

[27] ديوان خطب ابن نباتة، ص 111-112.

[28] ديوان خطب ابن نباتة، ص 186.

[29] ديوان خطب ابن نباتة، ص 322.

[30] ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 104.

[31] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع العلمة، ط1، الجزائر، 2009م، ص100.

[32] محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص80.

[33] ديوان خطب ابن نباتة، ص 310.

[34] ديوان خطب ابن نباتة، ص100.

[35] ديوان خطب ابن نباتة، ص339.

[36] ديوان خطب ابن نباتة، ص 379.

قائمة المصادر المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، دار الريادة للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2010م.

أولا المؤلفات:

1- أحمد حسن كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق، دار النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015م .

2- جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار العربية للعلوم، الرباط، (دط)، 2010م.

3- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع العلمة، ط1، الجزائر، 2009م.

4- طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م.

5- عبد الرحمان حسن حبكه الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها، وفنونها، دار القلم، دمشق، (دط)، 1996م.

6- عبد الرحيم بن محمد بن نباتة، ديوان خطب ابن نباتة، تحقيق: ياسر محمد خير المقداد، الوعي الإسلامي الكويت، ط1، 2012م.

7- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2004م.

8- علي آيت أوشان، السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب ط1، 2000م.

9- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصردار المعرفة الجامعية، ط1، 2006م.

ثانيا: الرسائل الجامعية :

1- شيتر رحيمة، تداولية النص الشعري جمهرة أشعار العرب أنموذجا، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب و اللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، السنة الجامعية : 2008-2009م،

مواقع الانترنيت:

1- مرشد الحيالي، ديوان ابن نباتة في الميزان، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة، 2010/06/19م، تاريخ الزيارة 2019/03/23، في الساعة 21:51 https://www.alukah.net/sharia/0/22791/